بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

المؤلف ونسبة كتاب التبيان إليه:

هو عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس بن حَبُوس الصِّنهاجى: آخر ملوك غرناطة، من الدولة الصنهاجية، فى أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥هـ، واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف ابن تاشفين وتغلب عليه سنة ٤٨٣هـ، وأخذه معه فى عودته إلى مراكش، وضم إليه أخًا له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا، فاضمحل ملك «بلكانة» من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع.

وهو صاحب كتاب «التبيان» الذى نقدم له اليوم، وهذا الكتاب رآه النباهى مؤلف «تاريخ قضاة الأندلس» ونقل عنه، وسماه النباهى ص ٩٣: «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» ثم نقل عنه بعض الأخبار، ونسبها إلى الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس هذا.

ثم كرر النباهى النقل عنه مرة أخرى فأورده فى ص ٩٧ بقوله: ومن الكتاب المسمى «بالتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» تصنيف أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، وقد تكلم فى أمر المرابطين، فقال ما معناه: «إن أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين، لما استقر بسبتة، يروم عبور البحر برسْم الجهاد فى الأندلس، وجه إليه الأمير عبد الله المتقدم الذكر، قاضيه ابن سهل، رسولاً... إلخ».

موضوع كتاب «التبيان»:

كتاب التبيان عبارة عن مذكرات فى ترجمة حياة الأمير عبد الله بن بلكين وحوادث عصره، وهو عصر ملوك الطوائف، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن، ثم إمارة جده باديس بن حبوس، وحوادث عصره، وحروبه وسِيَر ملوك الطوائف المعاصرين، ومقدم المرابطين وتدخلهم فى شئون الأندلس، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلكين أثناء حياته فى المنفى.

هذا وقد أخرج لنا الأستاذ ليفى بروفنسال هذا الكتاب بعنوان «مذكرات الأمير عبد الله» وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

أما نحن فى طبعتنا هذه فقد آثرنا التسمية الصحيحة والحقيقية لهذا الكتاب، وهى ما صرح به المؤرخون القدامى الناقلون عن كتاب الأمير عبد الله.

د. على عمر

القاهرة فى فبراير سنة ٢٠٠٦م

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ المصنَّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصِّه هنا ـ وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن ـ سبق أن عُرف لدى كلٍّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء، وعلى الأخصّ العهد المسمَّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ولقد نشرتُ منه، فى فترتين، أولاً ثلاث قِطَع، ومِنْ ثمَّ قطعتين واسعة كلَّما اكتُشف شيءٌ منها، وذلك فى مجلّة «الأندلس» الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ - ٣٩ وفى عام ١٩٤١، وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية، بعد فترة وجيزة، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديقى الأستاذ، غرسية غومس، للمجموع الذى أُلِّف بين أجزائه اليوم، ما عدا الصفحة الأولى، وفراغًا طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب، وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصَّلة وبمجموعة من الملاحظات التأريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطَّلع بتفصيل على المؤلَّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتأريخية.

سأقتصر هنا إذًا على بعض الإشارات الأساسية، فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكًا أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم، فكتبوا مُذكِّراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة، إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق، فإذا وُجد فى الغرب الإسلامى بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) فلا يعرف

من هذا الصنف التأريخي إلا مصنَّفٌ واحدٌ يذكر، وهو كتاب البَيْذَق صاحب المهـدى ابن تومرت مؤسِّس المُوَحِّـديّة، وقد وفِّقتُ منذ أكثـر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال فى إسبانيا ظلَّ مجهولاً إلى ذلك الحين، وإنَّه لتوفـيق آخر ليس أقلَّ سعادة من الأوَّل، أن أحـصل، بعد سنين طويلة، وجزءاً بعد جـزء، على مصنَّف لترجمـة شخصية لا يـقلُّ أهمِّيّة عن الأوّل، وهو مصنَّف الأمير عبد الله، الذى كانت كراريسه مبـعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهملة منذ ستـة قرون على الأقل، فى جناح تابع لمسجد القرويين بفاس.

وقد كنا نعرف، بفضل إشارة واردة فى كتاب «الحُلَل المَوْشية» المجهول المؤلِّف، أن الأمير عبد الله كان قد دوَّن تأريخًا عن الدولة التى أسَّستها أُسرتهُ فى إسبانيا والتى كان هو آخر ممثِّليها، وعندما أصدرتُ فى ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتـعلق بالأندلس من كتاب «أعمـال الأعلام» لابن الخطيب، جلبت انتباهى الفقرة الآتية (ص ٢٩٩): «وقفتُ على ديوان بخطِّ عبد الله بن بُلُكِّين ألَّفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرَّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله، أتحفنى به خطيبُ المسجد بآغـمات، رحمه الله» وبفضل إشارة أخرى وردت فى نفس الكتـاب، نعرف أنَّ ابن الخطيـب قد زار آغـمات وزار قـبر المعـتمد بن عبّاد فـى سنة ٧٩١ (١٣٩٠) فيمكننا أن نتسـاءل بأن المخطوط الذى استعـملناه، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة، فهـو على الأقل نسخة ثانية كُتبت عن الأصل وقُبلت معه، كما تثبت ذلك الإشارة المتردِّدة: «صحَّ، أصْلٌ».

وأخيراً، اكتشفت لى صدفة من صدف المطالعة العنوان التامّ لمذكّرات عبد الله: ففى فقرة من كتاب «المرقبة العليا» (ص ٩٧) وهو مصنَّف فى مراتب القضاء بالأندلس لمؤلّفه المشهور ابن الحسن النُّباهى (وقد نشرته فى القاهرة سنة ١٩٤٨) يتبيَّن أنَّ كتاب عبد الله كان موسومًا بـ «التِّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زِيرِى فى غرناطة».

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلام عمّا يُقصد منه: فالمؤلّف الذى عُزل ونُفى قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله.

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا، وأيَّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه؟ فلأكْتَفِ هنا بتلخيص ما نشرتُه عنه أخيراً فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية، ج ١، ص ٤٥):

كان عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس حَبُوس بن زِيرِى الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التى أسَّسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بنى زيرى البربرية الصِّنهاجيّة، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وُلِد فى سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) وعُيِّن عند وفاة أبيهِ بُلُكِّين سيف الدولة فى عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليٍّ عهد لجدِّه الأمير باديس بن حَبُوس، ثمَّ اعتلى بعده عرش غرناطة فى سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) بينما أصبح أخوه تميم المُعزّ مستقلا فى مالَقة، ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات فى داخل مملكته، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، والمواطآت مع ملك قشتالَّة ألفُونْش السادس، وساهم عبد الله فى وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لِيِّط عند تدخُّل المرابطين فى إسبانيا، لكن اتفاقاته مع الملك النصرانى أدَّت

به إلى ضياع عرشه، فقد جاء الأمير المرابطى يوسف بن تاشُفين لمحاصرته فى غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه، فعُزل عن ملكه وأُرسل إلى المنفى بمدينة آغمات، فى جنوب المغرب الأقصى، حيث انتهت حياته.

أما كتابة عبد الله لمذكِّراته، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية فى آغمات، وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكوِّن أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلَّها تحويرًا، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة، وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التى يحاول فيها المؤلِّف أن يبرِّر موقفه السياسى أمام الأخطار التى كانت تهدِّم مملكته، فإنَّ كتاب «التبيان» يقدِّم لنا سَرْدًا مفصَّلاً جدًا لجميع الحوادث التى أدَّت إلى استيلاء ألفونشُ السادس على مدينة طُلَيْطُلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين فى شبة جزيرة إبريا فى السنة التالية.

كما أنَّ مذكِّرات عبد الله هى وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التأريخ التى أُلِّفت من بعد، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدُّم الذى حقَّقه فى هذا الوقت أنصار استرجاع إسبانيا المسلمة فى النصرانية، ومن جهة أخرى، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضًا أمرٌ جديدٌ وهامٌّ جدًا، ويجبُ إذًا أن نعتبر مذكِّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض، وذلك ابتداءً من العصر الذى تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان، وإنَّ هذه الفترة التى سأصِفُها بحول الله فى الجزء الرابع فى كتابى «تأريخ إسبانيا الإسلامية» ستوَضَّح بصورة أوسع

وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنية لا يرتاب فيها.

* * *

إن مخطوط مذكّرات عبد الله يحتوى فى مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتيمتر) وهو مسجّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦، خطُّه من الخطّ المبسوط الأندلسى، والنسخة على العموم فى حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جدّا.

وقد أرفقنا مع النص ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب «البيان المغرب» لابن عِذارِى المراكشى، ومن كتاب «الإحاطة فى تأريخ غرناطة» لابن الخطيب، يتعلّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيّتين هامّتين فى دولته، وسيجد القارئ خريطة تساعده فى الوقوف على أهم المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النص.

أودُّ فى الختام أن أنبِّه قرّائى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته، مع أنها صحيحة، قد تأثّرت إلى حَدٍّ باللغة العامية الأندلسية، وأنه يلزم الرجوع بصورة خاصة إلى «ملحق القواميس العربيّة» لدوزى لفهم بعض الألفاظ التى تبدو خاطئة.

وليس من الضرورى أن أنبِّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التى أُضيفت داخل النص للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة فى النص الأصلى.

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيه ١٩٥٥

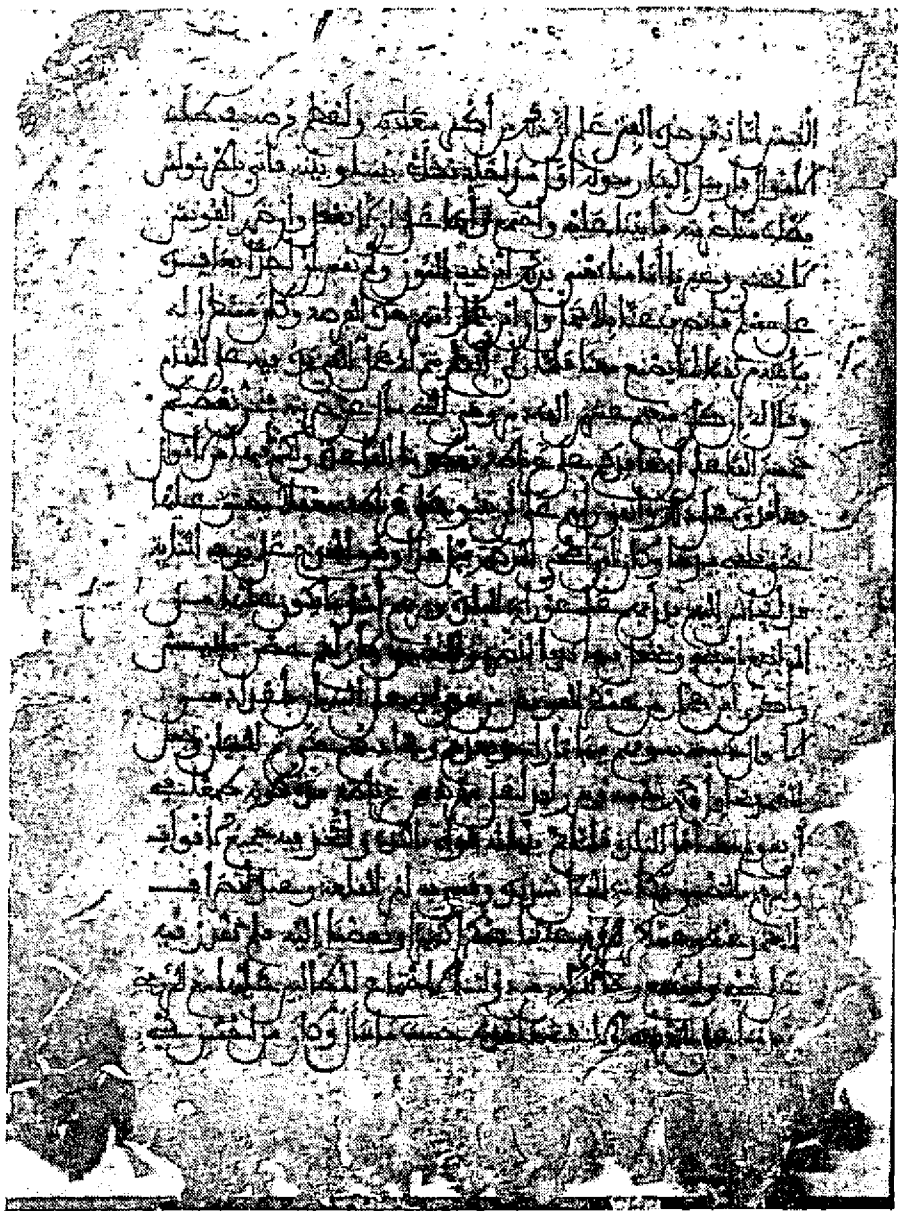

«مذكرات» الامير عبد الله

صفحة من الاصل المخطوط